الشعر وَالشعراء

لابن قُتَيْبَةَ

قرين الجاحظ فى سعة الثقافة وشمولها ، وندّه فى الذود عن مبادئه والنضال دونها : ابن قُتَيْبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم ، ولد فى بغداد أو الكوفة ، على خلاف فى ذلك ، عام ٢١٣ هـ - ٨٢٨ م ، لأب فارسى أصله من مرو . ولا تكاد المراجع تذكر عن أبيه شيئًا ، والتعليل القريب أنه لم يكن ذا شأن اجتماعى أو سياسى .

وعلى فرض أنه وُلدَ بالكوفة فإنّ إقامته بها كانت قصيرة ، إذ ما لبث أن فارقها إلى دار السلام ، فى وقت بلغت فيه عاصمة بنى العباس قدراً عاليًا من لتحضّر ، على نحو كانت تجمع فيه بين الشىء ونقيضه ، وتبلغ القمّة فى كليهما . وبيها درس على إسحاق بن راهويه ، ومحمد بن زياد الزيادى ، وأبى حاتم السجستانى ، وآخرين . واتصل بالعلماء والأدباء وغشى ندواتهم ، وحضر مجالس المتكلّمين وأعجب بها . وأنفق الشطر الأكبر من حياته فى بغداد ، يطلب العلم ، ويتولى التدريس ، ويعكف على التصنيف ، وتركها لمدّة قصيرة ، عمل فيها قاضيًا لمدينة دينور ، ولكنه ضاق بقيود الوظيفة كما ضاق بها الجاحظ من قبل ، « لأن أولئك - الموظفين - لباسهم الذّلة ، وشعارهم الملق ، وقلوبهم ممن لهم خول مملوءة ، قد لبسها الرّعب ، وألفها الذلّ ... فهم مع ذلك فى تكدير وتنغيص ، خوفاً من سطوة الرئيس ، وتنكيل الصاحب ، وتغيير الدول » . فعاد من جديد إلى بغداد وبقى بها حتى لقى الله عام ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م على أرجح الروايات .

كان ابن قتيبة ، فيما يقول ابن النديم ، « عالمًا باللغة والنحو ، وغريب القرآن ومعانيه ، والشعر والفقه ، كثير التصنيف والتآليف » .. وتاق منذ صغره إلى أن يكون أديبًا ، بمفهوم الأدب على أيامه ، فهو يحدّث عن نفسه : « كنت فى عنفوان الشباب ، وتطلّب الآداب ، أحُب أن أتعلّق من كل علم بسبب ، وأن أضرب فيه

بسهم » .ويزيد الأمر وضوحاً : « من أراد أن يكون عالمًا فليطلب فنًّا واحداً ، ومن أراد ن يكون أديبًا فليتسع فى العلوم » . وقد اتسع معها ما واتته إمكانات الحياة ، فدرس الفارسية وأجادها ، وقرأ التوراة والإنجيل واقتبس منهما ، وكان ملمًّا بالفلسفة فهو ينقل عن أرسطو صاحب الفلسفة ، ويقول صراحة : « قرأت فى كتب العجم والهند واليونان » . وأخذ بحظ وافر من النزاع العقيدى الذى لفّ عصره ، ولزم جانب أهل السنة ونافح عنها ، وكان لها ما كان الجاحظ للمعتزلة . وشارك فى الصراع العنصرى ، الذى كان قائماً بين العرب والموالى ولزم ، وهو فارسى ومولى ، جانب العرب ، لأنه أدرك وهو المسلم التقىّ ، ما وراء الحملة على العرب من أهداف بعيدة تتربص بالإسلام نفسه فالعرب مادة الإسلام ، كما يقول عمر رضى الله عنه ، وإثارة النزعات العنصرية البغيضة فيه تشويه لمعانى الإسلام السامية ، وجماعها أن يلتقى الناس إخوة على ما هو جميل ونبيل من الأفكار ، دون أن تباعد بينهم حماقات تتخذ اللون أو الجنس أو الإقليم أساسًا للتفاضل والتعالى . ولم يلزم جانب العرب سلوكاً صامتاً ، وإنما اتخذه مبدءاً يناضل عنه : « لا يمنعنى نسبى فى العجم أن أدفعها - أى الشعوبية - عما تدّعيه لها جهلتها » .

هذا العلم الواسع أكسبه ورعًا وتواضعًا ، فكان حسن العشرة ، موطأ الأكناف عفّ الخصومة ، مع اعتداد بالنفس ، وترفع عن الدنايا ، فلم يؤثر عنه أنه تعلق بأحد من أصحاب الجاه أو السلطان ، والصلة الوحيدة التى نعرفها له من المصادر التى تحدثت عنه ، صداقته للوزير أبى الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وزير المتوكل ولينه المعتمد ، وأهدى إليه كتابه « أدب الكاتب » . وفى غير نطاق الدين كان معتدل الرأى ، روى عن الكوفيين ، وأخذ عن البصريين ، وخلط بين المذهبين ، وكان واحداً من أئمة المدرسة البغدادية ، وكانت تقوم على المزج بينهما .

كانت تآليفه صورة صادقة لثقافته ، فجاءت متنوّعة تشمل أغلب معارف عصره ، يذكر له صاحب الفهرست ثلاثة وثلاثين كتابًا ، ويرتفع بها بعضهم إلى ستين ونيّف ، وبلغ بها آخرون ثلاثمائة ، وهو رقم يبدو لى أن أصحابه خلطوا بين أسماء الكتب نفسها ، وبين أسماء الفصول التى تحتويها الكتب الكبيرة ، وكان يطلق عليها أحياناً اسم « كتاب » ، كما فى « معانى الشعر الكبير » فهو يحتوى على اثنى عشر كتابًا ، أى فصلا ، ومناطق اهتمامات هذه الكتب القرآن

والحديث ، والنحو واللغة ، والأدب من شعر ونثر وأمثال والتاريخ والآداب الاجتماعية وغيرها . وقد أورد لنا **ابن خير الأشبيلى** ، فى « فهرسته » عما رواه عن شيوخه ، كتب ابن قتيبة الأوسع انتشاراً فى وطنه الأندلس ، فذكر منها : الأنواء ، والمعارف ، والشعر والشعراء ، والمسائل ، وعيون الأخبار ، ومعانى الشعر ، والميسر ، والقداح ، ويهمنا من هذه الكتب « **الشعر والشعراء** » ، وهو موضع دراستنا .

* * *

وصلنا **كتاب الشعر والشعراء** فى عدد من المخطوطات موزعة على عدد من مكتبات العالم ، فى القاهرة ودمشق والمدينة المنورة وبرلين وباريس وفيينا وليدن ، وتتفاوت فيما بينها عدد صفحات وموضوعات .

فى دار الكتب المصرية منها ثلاث نسخ ، إحداها « مخطوطة بقلم معاد ، بخط يحيى بن محمد بن لونيس بن القاضى المغربىّ الزواوى ، نقلها من نسخة مخطوطة محفوظة بالقسطنطينية فى دار كتب راغب باشا ، وفرغ من كتابتها لثلاث ليال خلون من شهر رجب سنة ١٢٨٦ هـ = (= ١٨٦٩ م) ، ويهامشها بعض تقييدات » ، ومسطرتها ٢٦ سطراً ، وجاءت فى ١٠١ ورقة ، وتوجد تحت رقم ٥٥٠ أدب . والثانية « بخط عيسى بن محمد بن سلمان ، فرغ من كتابته ظهر يوم الاثنين ، الثالث من شهر جمادى الآخرى ١٠٥٩ هـ (= ١٦٤٩ م) بها ترقيع وأكل أرضة وتلويث ، ويهامشها تقييدات » ، ومسطرتها ٢٥ سطراً ، وعدد أوراقها ١٤٥ ورقة ، مع ورقتين فى البدء ، جعل منها الناسخ فهرسًا لتراجم الشعراء الواردة فى الكتاب ، وتوجد تحت رقم ٤٢٤٧ أدب ، والأخيرة نسخة فى مجلد ، بقلم معتاد ، بخط محمد بن على بن حيدر بن محمد بن نجم الحسينى الموسوى ، فرغ من كتابتها فى الساعة الثانية من ليلة اليوم العاشر من شهر جمادى لأول سنة ١١١٣ هـ = ١٧٠١ م ويهامشها تقييدات قليلة ، وبالورقة الأولى منها حرم ، وهى فى ١٥١ ورقة ، ومسطرتها ١٨ سطراً ، وتوجد تحت رقم ٩١٦٠ أدب .

ولم تتفق المصادر التى تحدثت عن الكتاب ومخطوطاته على « عنونه » فهو عند ابن النديم « الشعر والشعراء » ، وفى ملاحظة على كتاب « المحاسن والأضداد » ، للجاحظ ذُكر باسم « أخبار الشعراء » . ويسميه ابن قتيبة فى

« المعارف » كتاب الشعراء ، وفى « عيون الأخبار » كتاب الشعر ، وعنوان مخطوطة بيروت « ديوان الشعر والشعراء » ، ومخطوطات القاهرة الثلاث ، واحدة تسميه « الشعر والشعراء » والأخريان عنوانها « طبقات الشعراء » . وعلى هامش مخطوطتى برلين وليدن « كتاب طبقات الشعراء » ، ويلاحظ المستشرق ألورد Ahlwardt أن الشعراء فى الكتاب ، برغم أنهم غير مرتبين بدقة فى طبقات ، مقسمون بحسب قدرة الشاعر الفنية ، أو بحسب القبائل ، وإذن يكون عنوان « طبقات الشعراء » مناسباً للكتاب ، وملاحظة ألورد غير دقيقة ، فالقدرة الفنية غير واردة فى منهج المؤلف ، على نحو ما سنشير إليه ، و « الشعر والشعراء » أدق تعبيراً عن مادة الكتاب ، ودراسته لكل جانب منهما مستقلة حتى لتكاد تصبح كتابًا قائماً بنفسه ، ويخيل إلىَّ ، والكتاب بعض ما ألَّف ابن قتيبة فى أواخر حياته ، أن كلًّا منهما كان نواة مؤلف مستقل ، لم تواته الفرصة ليمضى به إلى غايته كاملة ، فجمع بينهما برغم تباعد المنهج والمادة ، فهو فى الأول مبدع ناقد ، وفى الآخر راوية مؤرّخ . ويعزز رأيى هذا أنه يشير إليه فى بعض مؤلفاته الأخرى باسم « كتاب الشعر » ، على حين يحيلنا فى مؤلف آخر إلى « كتاب الشعراء » .

* * *

فصّل ابن قتيبة منهجه فى دراسته ، وهو أول منهج يصلنا فى العربية على هذا القدر من الوضوح ، ففيه حديث عن مادة الكتاب ، وغاية المؤلف ، ووسيلته إلى هذا الهدف ، فمادته « عن الشعراء وأزمانهم ، وأقدارهم ، وأحوالهم فى أشعارهم ، وقبائلهم وأسماء آبائهم ، ومن كان يعرف باللقب أو بالكنية منهم . وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره ، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ فى ألفاظهم أو معانيهم ، وما سبق إليه المتقدّمون فأخذه عنهم المتأخرون » .

« وأخبرت – الضمير يعود على ابن قتيبة – فيه عن أقسام الشعر وطبقاته ، وعن الوجوه التى يختار الشعر عليها ويستحسن لها » .

« وكان أكثر قصدى للمشهورين من الشعراء ، الذين يعرفهم جلّ أهل الأدب ، والذين يصحّ الاحتجاج بأشعارهم فى الغريب ، وفى النحو ، وفى كتاب الله عز وجل ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

« فأمّا من خفى اسمه ، وقلّ ذكره ، وكسد شعره ، وكان لا يعرفه إلا بعض الخواصّ ، فما أقلّ من ذكرتُ من هذه الطبقة ، إذ كنت لا أعرف منهم إلا القليل ، ولا أعرف لذلك القليل أيضًا أخباراً ، وإذ كنت أعلم أنه لا حاجة بك إلى أن أسمّى لك أسماء لا أدلّ عليها بخبر أو زمان ، أو نسب أو نادرة أو بيت يستجاد ، أو يستغرب » .

واعتذر ابن قتيبة بأن الشعراء ليسوا بمنزلة رواة الحديث والأخبار والملوك والأشراف ، فيبلغهم العدد ويجمعهم الإحصاء ، ويمكن أن يضمهم كتب واحد لا يدع شاعرًا قديماً ولا حديثًا إلا ذكره . « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم فى الجاهلية والإسلام ، أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفذ عمره فى التنقير عنهم ، واستفرغ مجهوده فى البحث والسؤال . ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها » .

ولم يعرض فى كتابه « لمن كان غلب عليه غير الشعر ، فقد رأينا بعض من ألّف فى هذا الفنّ كتابًا يذكر فى الشعراء من لا يُعرَف بالشعر ولم يقل منه إلّا النبذ اليسير ، كابن شبُرُمة القاضى ، وسُليمان بن قَتَة التَّيْميّ المحدث ، ولو قصدنا لذكر مثل هؤلاء فى الشعر لذكرنا أكثر الناس ، لأنه قلّ أحد له أدنى مُسكة من أدب ، وله حظ من طبع ، إلا وقد قال من الشعر شيئاً ، ولا حتجنا أن نذكر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجلة التابعين . وقومًا كثيرً من حملة العلم ، ومن الخلفاء والأشراف ، ونجعلهم فى طبقات الشعراء » .

وفصّل القول فى مسألة أشار إليها المبّرد فى « الكامل » عرضاً وعلى استحياء ، وأعنى بها ، الوقوف فى وجه التيار الجامد ، الرامى إلى إجلال كل قديم ، والتهوين من شأن كل معاصر ، فكان فى اختياره لمادته متحرراً من التبعية والتقليد : « ولم أسلك ، فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له ، سبيل من قلّد ، أو استحسن باستحسان غيره . ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره . بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلاً حظه ، ووفّرت عليه حقه » .

ويعتب على نقاد الشعر ودارسيه من أهل زمانه ، أن منهم « من يستجيد الشعر

السخيف لتقدّم قائله ، ويضعه فى متخيَّره ، ويُرْذِل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده إلاّ أنه قيل فى زمانه ، أو أنه رأى قائله » .

ولا يكتفى ابن قتيبة برأيه فى هذه القضية يقدمه بين يدى القارئ ، وإنما يحتج له بأسباب عمادها الملاحظة والمنطق والعقل ، فلم « يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خصَّ به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده فى كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً فى عصره ، وكلّ شرف خارجيَّة فى أوّله ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدّون محَدثين . وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثرُ هذا المحدث وحَسُن حتى لقد هممت بروايته » .

« ثمّ صار هؤلاء قدماء عندنا بُبْعدِ العهد منهم ، وكذلك يكونُ من بعدهم لمن بعدَنا كالخُرَيمى والعتّابى والحسن بن هانئ وأشباههم ، فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، وأثنينا به عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ، ولا حداثة سنه ، كما أن الردىء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمُّه » .

وإذا كنا ندين لابن سلام الجمحى بمعلوماتنا الوافرة عن **الانتحال فى الشعر العربى** ، طبيعته وأسبابه ، فنحن ندين لابن قتيبة بأول إشارة واعية وصريحة عن **الصراع بين القديم والحديث** فى عصره ، والتزامه جانب العدل دون النظر إلى قديم وحديث . غير أنه لم يمض بالقضية إلى غايتها ، فصمت عن العنصر الذى تدور حوله الجودة فى الشعر ، فيحكم عليه فى ضوئها وجوداً وعدماً . وكان هذا هو الجديد الذى أضافه علىّ بن عبد العزيز الجرجانى ، المتوفى عام ٣٩٢ هـ = ١٠٠١ م ، فى كتابه « الوساطة بين المتنبى وخصومه » حين عالج القضية بعد ذلك بمائة عام ، إذ رأى أن « ملاك الأمر فى هذا الباب خاصة ترك التكلف ، ورفض التعمّل ، والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه ، والعنف به ، ولست أعنى بهذا كل طبع ، بل المهذّب الذى قد صقله الأدب ، وشحذته الرواية ، وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الردئ والجيد ، وتصور أمثلة الحسن والقبيح » .

ولم يُرد ابن قتيبة أن يكرر نفسه ، فاعتذر عما أغفله فى هذا الكتاب مما يتصل بموضوعه وتحدث عنه فى كتاب آخر من مؤلفاته : « وكان حقّ هذا الكتاب أن

أودعه الأخبار عن جلالة قدر الشعر وعظيم خطره ، وعمن رفعه الله بالمديح ، وعمن وضعه بالهجاء ، وعما أودعته العربُ من الأخبار النافعة ، والأنساب الصحاح ، والحكم المضارعة لحكم الفلاسفة والعلوم ، فى الخيل ، والنجوم وأنوائها والاهتداء بها ، والرياح وما كان منها مبشراً أو جائلا ، والبروق وما كان منها خُلَّبًا أو صادقاً ، والسحاب وما كان منها جهاماً أو ما طراً ، وعما يبعث منه اليخيل على السماح والجبان على اللقاء ، والدنّ على السموّ ، غير أنى رأيت ما ذكرت من ذلك « فى كتاب العرب » كثيراً كافيًا ، فكرهت الإطالة بإعادته ، فمن أحبّ أن يعرف ذلك ، ليستدل به على حلْو الشعر ومرّه ، نظر فى ذلك الكتاب » . وقد التقط هذه الفكرة ، فيما بعد ، ابن رشيق القيروانى ، المتوفى عام ٤٦٣ هـ = ٩٦٨ م ، فطبّقها فى كتابه « العمدة » فى صناعة الشعر ونقده » .

وبعد أن قدّم بين يدى القارئ منهاجه ، تجاوزه إلى **مادة الكتاب** نفسها ، فجعلها على قسمين : « الشعر » و « الشعراء » . ويمكن القول ، بوجه عام ، أنه فى الجانب الأول خالق مبدع ، وأنه فى الآخر جمّاع راوية .

تحدّث فى القسم الأول عن الشعر ، لفظه ومعناه ، ما حسُن منه وما رذُل ، وهو تقسيم ينهض أساساً على المنطق الشكلى ، وخلال الحديث عن هذه الأقسام ، لاحظ – وبحق – أن « أشعار العلماء ليس فيها شىء جاء عن إسماح وسهولة ، كشعر الأصمعى ، وشعر ابن المقفع ، وشعر الخليل ، ودلّل على رأيه بأبيات للخليل بن أحمد العروضى :

إن الخليط تصدّعْ ... فطرْ بدائك أوقَعْ
لولا جوارٍ حسانٌ ... حُورُ المدامع أرْبعْ
أمُّ البنين وأسما ... ءُ والرّبابُ وبوْزَعْ
لقلتُ للراحل ارْحلْ ... إذا بدا لك أو دَعْ

وهو شعر « بيّن التكلف ، ردىء الصنعة » ولو لم يكن إلا « أمّ البنين » و « بَوْزَعْ » لكفاه ! .

وأورد لنا تعليلا ، نسبه إلى بعض أهل الأدب ، لنهج القصيدة العربية ، فى وقوفها بالأطلال ، وانتقالها منه إلى الغزل ، فإلى وصف رحلة أو ما عليه يُرْحل ،

ثم إلى الموضوع ؛ وانتهائها ببيت أو أبيات تجرى مجرى الأمثال . وهو تعليل سقط فيه على بعض الحق ، وجانبه الصواب فى بعضه الآخر[١] .

ويرى بن قتيبة أنه « ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين » فيما يتصل بشكل القصيدة ، لكنه يكره لهم أن يقلدوا القدامى فى المعانى والأخيلة ، أو يجددوا ما هو شر من التقليد ، كأن يقف الشاعر على منزل عامر ، أو يبكى عند بنيان مُشيّد ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر ، والرسم العافى ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما ، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير . أو يرد على المياه العذاب الجوارى ، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامى ، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد ، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنْوةِ والقرَارة » .

وتكلم عن الطبع والتكلف فى الشعر وعند الشعراء ، ودواعى الشعر « التى تحث البطئ وتبعث المتكلف » وعد منها خمسة : الطمع ، وَالشوق ، وَالشراب ، وَالطرب وَالغضب وقد أصاب حين ذكر هذه الدوَاعى ، لأن الانفعال وليدها ، أو يشتد معها وَيحتد ، وأصاب حين اتخذها مثلا وَلم يقصر الدوَاعى عليها ، لأن مظاهر الانفعال وَأسبابه عديدة ، إلا إذا فهمنا مدلول الألفاظ على نحو فضفاض يتسع لكل رغبات الإنسان وَنقائضها ، وَالنقائض انفعالات أيضًا ، ودلل على دعواه بعدد من تجارب الشعراء ، مثل الحطيئة ،وكثيِّر عزة ، والأحوص ، والشنفرى ، وَغيرهم . وَمن ثَمَّ فإن الشعر – وكل ضروب النثر – يقرب ويَبعد تبعًا لانفعال الشاعر ، وَالانفعال لا يأتى حين يريده المرء ، ولا حيلة له فى دفعه إذا جاء ، وبقدر عمق الانفعال ، وصدق التعبير عنه ، تختلف أشعار ورسائل الكتاب والتكلّف فى الشعر بأن ترى البيت فيه مقرونًا بغير جاره ، ومضمومًا إلى غير لفقه . « المطبوع من الشعراء من سَمَح بالشعر واقتدر على القوافى ، وأراك فى صدر بيته عَجُزَه ، وفى فاتحته قافيته ، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشْى الغريزة ، وإذا امتحُنِ لم يَتَلَعْثم ولم يتزَحّر »[٢] .

---

(١) انظر كتابنا : امرؤ القيس ، حياته وشعره ، ص ١٥٩ وما بعدها ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥ .

(٢) الزحير : إخراج الصوت أو النفس بأنين عند عمل أو شدة .

وأدرك ابن قتيبة واعيًا أن **مجموعة الخصال النفسية** التى تهيئ كل إنسان إلى عمل ما فى الحياة بتفوّق وإجادة ، تختلف من شخص إلى آخر ، وتيسّر من وجُدت عنده السبيل التى تهيئها له طبيعته ، فالشعراء مختلفون فى الطبع : « منهم من يسهل عليه المديح ، ويعسر عليه الهجاء . ومنهم من يتيسر له المراثى ويتعذر عليه الغزل » . والطبع وحده لا يكفى لقول الشعر أو نقده ، وإنما يحتاج منه الشاعر أو الناقد إلى ثقافة تمدّه بالفكرة ، وتعينه على التصوير ، وتعمق تجاربه بالمعرفة ، « وكل علم محتاج إلى السماع ، وأحوجه إلى ذلك علم الدين ، ثم الشعر ، لما فيه من الألفاظ الغريبة ، واللغات المختلفة ، والكلام الوحشى ، وأسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه ... وأشباه هذا ، لأنه لا يلحق بالذكاء والفطنة ، كما يلحق مشتق الغريب » .

ثم عالج **عيوب الشعر** : الإقواء ، والإكفاء ، والسناد ، والإيطاء ، والإجازة . وتعرض لأخطاء الأعراب ، وما يجب أن يكون عليه الشعر من تسام عن سواقط اللهجات ، وشواذ اللغات .

وأوقف ابن قتيبة **القسم الثانى** من كتابه ، وهو الأكثر أهميَّة بالنسبة لتأريخ الأدب على **الشعراء** ، أنسابهم وأشعارهم ، وما اتصل بهم من تاريخ وحكايات ، ومَّهد له بحديث قصير مبتور عن أوائل الشعراء ، ذكر فيه ثلاثة منهم دُوَيد بن نهد القضاعى ، وأعصر بن سعد بن قيس عيْلان ، والحارث بن كعب ، وأورد لكل واحد منهم أبياتًا قليلة ، ولم يقدم بين يديه خبرًا واحدًا يعين على وضعه فى مكانه من التاريخ . وبعض الشعراء الذين ذكرهم ابن سلام الجمحى على أنهم من أوائل الشعراء ، فجعلهم خارج طبقاته ، وتحدّث عنهم فى المقدّمة ، ضمنهم ابن قتيبة كتابه ووضعهم فى زمرة الشعراء المعروفين . وقد بلغت عدَّة الشعراء الذين ترجم لهم ٢٠٦ شعراء ، بين جاهلى ومخضرم وإسلامى ، ومن عاصره من العباسيين ، بدأهم بامرئ القيس وختمهم بالأشْجَع السُّلَمى ، ولم يترجم معهم لغير شاعرتين هما : الخنساء بنت الشريد ، وليلى الأخْيَليّة .

ولم يلتزم بنهج معين يسير عليه فى تعريفه بالشعراء ، وكل ما هنالك أنّه أورد الجاهليين أوّلا ، وأتبعهم بالإسلاميين ، وتناثر المخضرمون بين القسمين . وداخل كل قسم سار فيه على ما يمكن أن أسميه « **تداعى المعانى** » ، فقد بدأ دراسة

الشعراء بامرئ القيس ، وثنى بزهير ، وأتبعه بابنه كعب ، للرابطة الأسرية التى بينهما ، وما من سبب آخر غير هذه الصلة يبرر تقدمه ، لأن الذين جاءوا بعده كطرفة بن العبد ، والحارث بن حلِزّة ، وعمرو بن كلثوم ، أقدم زمنًا ، وأجود إنتاجًا . وليس من الضرورى أن تكون هذه الصلة قرابة مباشرة كالتى بين زهير وابنه كعب ، بل قد تكون مجرّد صلة قبَلية ، فقد عاقب بين شعراء هذيل ، وخّصهم بعنوان مستقل ، وترجم لاثنى عشر شاعرًا منهم على التوالى .

وقد تكّون **القرابة الفنية** سببًا فى إلحاق شاعر بشاعر ، فقد ترجم لشعراء النقائض متتابعين : جرير والفرزدق والأخطل على التوالى ، والأخطل أسنهم . ولعّله لحظ فى ترتيب الثلاثة منزلتهم الشعرية . ولما ترجم للعجّاج الراجز ، ثم ترجم لابنه رؤبة من بعده ، ترجم لبقّية الشعراء الرّجّاز الآخرين ، وهم : أبو نُخَيْلة . من بنى جِمّان بنى كعب بن سعد ، وأبو النجم ، الفضل بن قدامة ، ودكين بن رحاء ، والأغلب بن جشم .

وقد يكّون الداعى **مجرّد الاشتراك فى حادثة معينة** ، فإذا ترجم لتوبة بن الحُمَيِّر وكان شاعرًا لصّا ، وأحد عُشاق العرب المشهورين ، ترجم بعده لصاحبته ليلى الأخيلية وإذا ترجم لكثير عزّة ترجم بعده لصاحبه الأحوص ، وكان على مذهبه فى الحياة والنساء ، وإذا ترجم لمجنون ليلى ، قيس بن معاذ ، ترجم بعده للعرجى عبد الله عمر حفيد الخليفة عثمان ، فكلاهما كان شاعرًا غزلا ، وإن اختلفا منحى وأسلوبا . وإذا ترجم لعروة بن حزام صاحب عفراء ، وأحد العشّاق الذين قتلهم العشق ، ترجم بعده لقيس بن ذَريح صاحب لبنى ، وندّه فى دنيا العواطف والهيَام .

وقد تكون **الصداقة بين شاعرين** إحدى هذه الدواعى ، فقد ترجم للكُمَيْت بن زيد ، من بنى أسد ، وأتبعه بترجمة الطرمّاح بن حكيم ،من طيئ ، وكان بين الاثنين من المودّة والمخالطة ما لم يكن بين اثنين ، على تباعد ما بينهما فى الدين والرأى ، لأن الكميت كان رافضيًّا ، وكان الطرمّاح خارجيًّا صُفْريًا ، وكان الكميت عدنانيًّا عصبيًّا ، وكان الطرمّاح قحطانيًّا عصبيًّا ، وكان الكميت متعصبًا لأهل الكوفة ، وكان الطرماح يتعصب لأهل الشام .

وفيما يبدو كان ابن قتيبة ، إذا تيسرت له مادة علمية أثناء التأليف حول شاعر

معين ضمَّها إلى كتابه ، دون أن يهتمّ بوضع الشاعر فى المكان المو'فق لزمنه أو اتجاهه ، فقد ترجم لدريد بن الصِّمَّة ، « وهو أحد الشُّجَعَاء المشهورين فى الجاهلية » فى القسم الإسلامى ، فسبق به فى الترجمة يحيى بن نَوفل اليمنى ، وكان على أيام الحجاج الثقفى ، وأتبعه إبراهيم بن هَرُمَة ، وكان على أيام أبى جعفر المنصور . وترجم للعباس بن مرداس ، وهو من المخضرمين ، بين الشعراء الجاهليين ، ترجمة قصيرة لا تتجاوز نصف الصفحة ، ثم عاد وقدم له ترجمة أخرى بين الشعراء الإسلاميين فى ثلاث صفحات كاملات .

كانت ترجمة امرئ القيس أطول التراجم وأوفاها ، فتضمَّنتْ عددًا وافرًا من الروايات المتصلة بتاريخ حياته ، وتشغل من الكتاب فى أحدث طبعاته أكثر من ثلاثين صفحة ، ومن ثَمَّ فهو يعد بحق من المصادر الأولى لدراسة حياة امرئ القيس وشعره . لكن بعض التراجم تقصر حتى لا تتجاوز اسم الشاعر ، يتلوه بيت له من الشعر ، كما فى تراجم : سُحَيْم بن وَثيل ، وصخر الغى ، وأبو العيال ابن أبى عنترة . وطريقته فى التراجم المطوَّلة ، أن يورد نسب الشاعر ، وبعض أخباره ، وشيئًا من نصوصه المختارة فى إيجاز ، ثم يعود فيبسط ما أجمل ، وهو مجمِلا وباسطًا لا يتردد فى ذكر الروايات المتعددة حول الخبر الواحد ، وقد تتعارض الروايات فيما بينها . والقليل من أخباره جاء كامل الإسناد ، وبعض منها اقتصر فيه على الراوى المباشر ، وجانب كبير أورده بلا إسناد كلّه . وبعض الشعراء مثل يحيى بن نوفل ، كان الوحيد الذى ترجم لهم من بين معاصريه .

وابن قتيبة لا يهتم عادة بتفسير لغويات النصوص التى يوردها ، ولا بشرحها ، وقد يعلّق عليها أحيانًا ، ينقد بعض ما يرويه ، لكن نقده يقوم على على التذوّق ، لا على التحليل والتعليل ، فإذا أورد قول المرقّش الأكبر :

هلْ بالديار أن تُجيبَ صَمَمْ لو أن حيًّا ناطقًا كَلَمْ
يأبى الشباب الأقْوَرينَ ولاَ تَغبِط أخاكَ يُقَال حَكَمْ

علّق عليها : والعجبُ عندى من الأصمعىّ ، إذ أدخله فى مُتخَيَّره ، وهو شعر ليس بصحيح الوزن ، ولا حسن الروىّ ، ولا مُتَخَير اللفظ ، ولا لطيف المعنى ، ولا أعلم فيه شيئًا يستحسن إلا قوله :

النشْرُ مِسْكٌ والوجوه دَنَا نيرٌ وأطْرافُ الأكُفّ عَنَمْ

وقد يمهد لاختياره الأبيات بتعليق لا يتجاوز قوله : « ويستجاد من تشبيهه » أو « مما يستجاد من شعره » أو « ومما يعاب عليه من شعره قوله » ، ولكنه يُكثر من المقارنة بين الأبيات متفرّدة ، يستقصى ما أخذ اللاحقون من السابقين ، ويقارن بين الاثنين ، ولا ينسى للمتقدم فضل السبق ، وللمتأخر فضل الزيادة إن أجاد .

وبرغم الدقة التى التزمها ابن قتيبة فى إيراده للأخبار ، والتزامه الأمانة فى النقل ، كنت ذاكرته تخونه على قلّة ، فيخطئ فى نسبة الشعر أو نسب الشاعر ، وقد تتشابه عليه الأسماء فيخلط بينها ، ويضيف من الأحداث لشاعر ما ليس له . فحين ترجم لأبى دواد الإيادى ذكر أنهم « اختلفوا فى اسمه ، فقال بعضهم : هو جارية بن الحجاج ، وقال الأصمعى : هو حنظلة بن الشّرقى » . ونسبة هذا الخبر إلى الأصمعى خاطئة ، لأن حنظلة بن الشرقى هو أبو الطمحان القينى ، وقد ذكر الأصمعى نسب أبى داود صحيحًا فى « أصمعياته » فذكر أنّه أبو دواد الإيادى واسمه « جارية بن الحجاج » .

ومهما يكن من شىء فالكتاب على قدر كبير من التنظيم ، وهو أول ما نلقى من تأليف عربى منظم ، بعد فوضى الجاحظ والمبرّد ، إنه أشبه ما يكون بالتأليف المدرسى فى عصرنا الحاضر ، يضم كل موضوع إلى شبيهه ، ويقسم الكتاب إلى تراجم ذات عناوين ، وهوَ يلتقى مع الجاحظ فى إيثار الجمل الوجيزة المتوازية ، ويختلف عنه فى أنه لا يلتفت إلى السجع ، ويميل إلى ما هو سهل من المفردات والتراكيب . وخاتمة الكتاب لا تشعر بانتهائه ، فهو ينتهى بها عند ترجمة أشجع السلمى ، ببيت شعرى له يعلق عليه بأنه أخذه من شاعر سابق له ، ثم لا ينتهى الحديث عى طريقة التأليف فى أيامه ، فإذا عرفنا أن الكتاب خلا من تراجم لثلاثة من كبار شعراء عصره ، وكانوا معاصرين له ، وهم : أبو تمام والبحترى ، وابن الرومى ، كان لنا أن نتصور أن النسخة التى بين أيدينا ليست كاملة ، والظن فى احتمال آخر أمر بعيد .

* * *

كان كتاب « الشعر والشعراء » من أوائل المصادر العربية التى قام على تحقيقها ونشرها لمستشرقون ، فقام المستشرق الألمانى نولدكه Th. Noldeke

(١٨٣٦ - ١٩٣٠ م) بترجمة الجزء الأول (= المقدمة) الخاص بالشعر إلى اللغة الألمانية عام ١٨٦٤ ، ونشر **ريترهَوْزن** الكتاب نفسه مع ترجمته إلى اللغة الهولندية عام ١٨٧٥ . وقد أعاد المستشرق الهولندى **دى خويه** De Goeje نشره مرة أخرى فى ليدن عام ١٩٠٢ م . ونشر المستشرق الفرنسى **جوفروى ديمومبين** Gaudefroy-Demombynes المقدمة مرة أخرى فى باريس ، مصحوبة بترجمة فرنسية عام ١٩٤٧ م .

أما فى العالم العربى فقد طبعه **السيد محمد أمين الخانجى** لأول مرة فى مصر عام ١٣٠٢ هـ = ١٩٠٤ م ، مع بعض تعليقات للسيد محمد بدر الدين النعسانى ، وهى نسخة مختصرة غير كاملة . وفى نفس السنة طُبع أيضًا بمدينة الآستانة فى تركيا . وطبعه **محمود توفيق** بمطبعة المعاهد بمصر سنة ١٣٥٠ هـ = ١٩٣٢ م ، وصححه وعلق حواشيه الأستاذ **مصطفى السقا** ، وهذه الطبعة مثل طبعة الخانجى ، مختصرة غير كاملة ، ولا تزيد عليها إلا قليلا .

ثم عهدت « دار إحياء الكتب العربية » فى مصر بتحقيقه مرة أخرى إلى العلامة المرحوم **أحمد محمد شاكر** ، فقام بهذا العمل ، معتمدًا فى تحقيقه على طبعة ليدن لعام ١٩٠٢ ، واجتهد فى تخريج ما فى الكتاب من شعر وغيره ، وصنع له فى آخر الجزء الثانى فهارس جمة متقنة : للكتاب على أبوابه ، وللأعلام عامة ، وللأماكن ، وللقوافى ، ولأيام العرب ووقائعها ، وفهرسًا للألفاظ المفسَّرة فى الكتاب . وصدّر الكتاب بترجمة للمقدمة اللاتينية التى صدّر بها دى خويه طبعته ، قام بترجمتها الأستاذ وهيب كامل ، ثم وصف النسخ المخطوطة التى اعتمد عليها . وقد صدرت الطبعة الأولى منه فى جزأين بين سنتى ١٣٦٤ - ١٣٦٩ هـ = ١٩٤٥ - ١٩٥٠ م ، وصدرت الطبعة الثانية منه عن دار المعارف عام ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٦ م . ولا شك أن هذه الطبعة هى أكمل ما بين أيدينا من نسخ الكتاب حتى الآن .

○ مختارات من كتاب « الشعر والشعراء » :

أقسام الشعر

قال أبو محمّد : تدبَّرْتُ الشعرَ فوجدته أربعة أضْرُب :

● ضربٌ منه حَسُنَ لفظه وجاد معناه ، كقول القائل فى بعض بنى أمية :

فى كَفِّه خَيْزُرَانٌ ريحُه عَبِقٌ من كَفِّ أرْوَعَ فى عِرنينهِ شَمَمُ
يُغْضِى حياء ويُغْضَى من مَهابتهِ فما يُكَلَّم إلا حِينَ يَبْتَسِمُ

لم يُقَلْ فى الهيبة شىء أحسنُ منه .

وكقول أوْس بن حَجَرٍ

أيَّتُهَا النّفس أجْمِلِى جَزَعًا إنَّ الذى تَحْذَرِينَ قد وقَعَا

لم يبْتَدِئ أحد مرثيةً بأحسن من هذا .

وكقول أبى ذُؤيب :

والنفْسُ راغِبَةٌ إذا رَغَّبْتَهَا وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنَعُ

حدثنى الرياشِىّ عن الأصمعى ، قال : هذا أبدع بيت قالته العرب . وكقولُ حُمَيْد بن ثَوْر :

أرَى بَصَرِى قد رَابنى بعد صحّةٍ وحَسبُك داءً أن تصِحّ وتَسْلَمَا

ولم يُقَل فى الكبرِ شىءٌ أحسنَ منه .

وكقوله النابغة :

كِلينى لِهَم يا أمَيْمَةُ ناصِبِ وليلٍ أقاسِيهِ بَطِىءِ الكَواكِبِ

لم يبْتدئ أحدٌ من المتقدّمين بأحسنَ منه ولا أغربَ .

ومثل هذا فى الشعر كثير .

● وضربٌ منه حَسُنَ لفْظه وحَلا ، فإذا أنتَ فتّشْته لم تجدْ هناك فائدة فى المعنى ، كقول القائل :

ولمّا قَضَيْنَ مِن مِنًى كلَّ حاجةٍ ومَسَّحَ بالأركانِ من هو ماسِحُ
وشُدّت على حُدْبِ المهارى رِحالنا ولا ينظرُ الغادِى الذى هو رائحُ
أخذْنا بأطرافِ الأحاديثِ بيننا وسالَتْ بأعناقِ المطِىِّ الأباطحُ

هذه الألفاظُ كما ترى أحسنُ شيء مخارجَ ومطالع ومقاطع . وإن نظرت إلى ما تحْتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا أيام منى واستلمنا الأركان ، وعالينا إبِلَنا الأنْضاء[1] ومضى الناس لا ينتظر الغادى الرَّائحَ ، ابتدأنا فى الحديث وسارتْ المطىُّ فى الأبْطح .

وهذا الصنف فى الشعر كثير .

ونحوه قول المَعْلُوط :

إن الـذين غَدوْا بُلْبـكَ غادروا ... وَشَـلًا بعينِكَ مـا يزالُ مَعينَـا[2]
غيضن من عبـراتهن وقُلن لِى ... مـاذا لقيتَ من الهَـوى ولَقِينـا

ونحوه قول جرير :

يا أخت ناجيـةَ السَّلامُ عليكُمْ ... قبلَ الرحيلِ وقبَل لَوْمِ العُذّلِ
لو كُنت أعْلَمُ أن آخر عَهْدِكمْ ... يوم الرحيلِ فعلت ما لم أفْعَلِ

● وضربٌ منه جاد معناه وقصُرتْ ألفاظه عنه ، كقول لَبِيد بن ربيعة :

ما عاتبَ المرء الكريم كَنفسِهِ ... والمرءُ يُصْلحهُ الجليسُ الصَّالح

هذا وإن كان جيّد المعنى والسَّبْك فإنه قليل الماء والرَّونق .

وكقول النّابغة للنعمان :

خَطاطيفُ حُجْنٍ فى حِبَالٍ متينةٍ ... تَمُدُّ بها أيدٍ إليك نوازِعُ[3]

قال أبو محمد : رأيت علماءنا يستجيدون معناه ، ولست أرى ألفاظه جيادًا ولا مُبيِّنَةً لمعناه ، لأنه أراد : أنت فى قدرتك علىّ كخطاطيفَ عُقْف يُنَ بها ، وأنا كدلْو تُمدُّ بتلك الخطاطيف . وعلى أنى أيضًا لست أرى المعنى حيدًا .

● وضربٌ منه تأخر معناه وتأخرَّ لفظه ، كقول الأعْشَى فى امرأة :

وفَـوهـا كـأقـاحـىَّ غـذاه دَائِـمٌ الهَـطْلِ
كـما شيبَ بـراحٍ بـا ... ردٍ من عَسَـلِ النَّحْـلِ

---

(١) الأنضاء جمع نضو ، وهو الدابة التى أهزلتها الأسفار وأذهب لحمها . وعالينا بلنا الانضاء أى اعتلينا الإبل الهزيلة من مشاق الرحلة .

(٢) الوشل من الدمع يكون القليل والكثير .

(٣) الحجن : جمع أحجن وهو المعوج .

وكقول الخليل بن أحمد العروضى :

إنّ الخليطَ تَصَدعْ فطِرْ بدائِكَ أوْ قَعْ
لولا جوارٍ حِسَانْ حور المدامع أرْبَعْ
أمُّ البنينَ وأسما ءُ والرَّبابُ وبَوزعْ
لغلْت للراحِل ارْحَلْ إذا بدا لَكَ أو دَعْ

وهذا الشعر بّين التكلف ، ردىء الصّنعة ، وكذلك أشعار العلماء ، ليس فيها شيءٌ جاءَ عن سَماح وسهولة كشعر الأصْمَعىّ وشعر ابن المقفع ، وشعر الخليل ، خلا خلف الأحمرَ فإنه أجودهم طبعًا وأكثرهم شعرًا ، ولو لم يكن فى هذا الشعر إلا (أم البنين) و (بوزع) لكفاه !

عيوب الشعر

● **الإقواء :**

قال بو محمَّد : كان أبو عمرو بن العَلاء يذكر أن الإقواء هو اختلافُ الإعراب فى القوافى ، وذلك أن تكون قافيةٌ مرفوعة وأخرى مخفوضة كقول النابغة :

قالتْ بَنُو عامرٍ خالوُا بنى أَسَدٍ يا بُؤْسَ للجهْلِ ضَرَّارًا لأقوامِ

وقال فيها :

تَبْدُو كَواكِبُهُ والشمس طالعةٌ لا النور نورٌ ولا الأظْلام إظلامُ

● **السند :**

والسند هو أن يختلف إردافُ القوافى كقولك : « علَيْنا » فى قافية « وفينا » فى أخرى ، كقول عمرو بن كُلْثُوم :

* ألا هُبى بصَحْنِكِ فاصبحينا *

فالحاء مكسورة . وقال فى آخر :

* تصفقّها الرياح إذا جَرَيْنا *

فالراء مفتوحة وهى بمنزلة الحاء .

● **الايطاء :**

والإيطاء هو إعادة القافية مرّتين وليس بعيب عندهم كغيره

● **الإجازة :**

اختلفوا فى الإجازة ، فقال بعضهُم : هو أن تكون القوافى مقَّيدة فتختلفُ الأردافُ كقول امرئ القيس :

* لَايدَّعِى القومُ أنَّى أفَرّ *

فكسر الرّدْفَ ، وقال فى بيت آخر :

* وكِنْدَة حَوْلِى جميعًا صُبرْ *

فضم الرّدْف . وقال فى بيت آخر :

* أَلْحَقْتَ شَرا بِشَرّ *

ففتح الرّدْف .

وقال الخليل بن أحمد : هو أن تكونَ قافيةٌ ميًا والأخرى ـنًا ، كقول القائل :

يارَبَّ جَعْدٍ منهُمُ لو تَدْرينْ
يضرِبُ ضَرْبَ السّبْطِ المقادِيمْ

دواعى الشعر وبواعثه

وللشعر دواع تحثُّ البطئ وتبعث المتكلّف ، منها الطمع ، ومنها الشـق ، ومنها الشّراب ، ومنها الطربُ ، ومنها الغضبُ .

وقيل للحطيئة : أىُّ الناسِ أشْعَرُ ؟ فأخرج لسانًا دقيقًا كأنه لسانُ حيَّةٍ فقال : هذا إذا طمع .

وقال أحمد بن يوسف الكاتب لأبى يعقوب الخُرَيمىّ : مدائحكَ لمحمد بن منصور ابن زياد ، يعنى كاتبَ البرامكة ، أشعر من مراثيكَ فيه وأجْود . فقال : كُنّا يومئذ نعملُ على الرَّجاء ، ونحن اليومَ نعمل على الوفاءِ ، وبينهما بَوْنٌ بعيد .

وهذه عندى قصة الكُمَيت فى مدحه بنى أمية وآل أبى طالب ، فإنه كان يتشَّيع ، وينحرف عن بنى أمية بالرأى والهوى ، وشعرهُ فى بنى أميَّة أجودُ منه فى الطالبّيين ، ولا أرى علة ذلك إلا قوة أسبابِ الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة .

وقيل لكُثير : يا أبا صخر ، كيف تَصْنَعُ إذا عَسُر عليك قولُ الشعر ؟ قال : أطوفُ فى الرباع المخلية ، والرياض المعشبة ، فيسهل على أرضَنُه ، ويسرُعُ إلىّ أحسنُه . ويقال أيضًا إنه لم يُسْتَدعَ شاردُ الشعرِ بمثل الماء الجارى والشرَّف العالى والمكانِ لخضر الخالى .

وقال عبد الملك بنَ مروان لأرْطاة بن سُهَّية : هل تقول الآن شعرًا ؟ فقال : ما أشربُ ولا أطربُ ولا أغضبُ ، وإنما يكون الشعرُ بواحدة من هذه .

وللشّعر تاراتٌ يبعُدُ فيها قريبُه ، ويستصعبُ ريِّضُه ، وكذلك الكلامُ المنثورُ فى الرسائل والمقامات والجوابات ، فقد يتعذّرُ على الكاتبِ الأديبِ ، وعلى البليغ الخطيب ولا يُعرفُ لذلك سَبَبٌ ، إلا أن يكون من عارض يعترضُ على الغريزة من سوء غذاء أو خاطر غمّ .

وكان الفرزدق يقول : أنا أشعر تميم ، وربّما أتت علىَّ ساعةٌ ونزعُ ضرس أسهلُ علىَّ من قول بيت .

وللشعر أوقاتٌ يسرعُ فيها أتيُّه ، ويسمحُ أبيُّه ، منها أولُ الليل قبل تغَشّى الكرى ، ومنها صدرُ النهار قبل الغذَاء ، ومنها يوم شربُ الدواء ومنها الخلوة فى الحبْس والمسير .

ولهذه العللِ تختلفُ أشعارُ الشاعر ورسائل الكاتب .

والمتكَلَّفُ من الشعر وإن كان جيداً محكمًا فليس به خفاء على ذوى العلم لتبينهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكر وشدَّة العناء ، ورشح الجبين ، وكثرة الضرورات ، وحذف ما بالمعانى حاجةٌ إليه ، وزيادة ما بالمعانى غنى عنه ، كقول الفرزدق فى عمر بن هُبَيرة لبعض الخلفاء :

أوَلّيْتَ العـراقَ ورافِـدَيْـه فَـزَاريًّا أحَـذَّ يـد القيمص

يريد : أولّيتها خفيف اليد ، يعنى فى الخيانة ، فاضطرته القافيةُ إلى ذكر القميص .

وتتبينُ التكلّف فى الشعر أيضًا بأن ترى البيت فيه مقرونًا بغيره جار مضمومًا إلى غير لفقه ، ولذلك قالَ عمرُ بنُ لجأ لبعض الشعراء : أنا أشعر منك ، قال : وبم ذلك ؟ فقال : لأنى أقول البيت وأخاه ، ولأنك تقول البيت وابن عمّه .

والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافى ، وأراك فى صدر بيته عجُزَه وفى فاتحته قافيته ، وتبينت على شعره رونَقَ الطبع ووشى الغريزة ، وإذا امتُحِن لم يتعلثم ولم يتزحَّرْ .

والشعراء أيضًا فى الطبع مختلفون : منهم من يسهُل عليه المديح ويعسُر عليه الهجاء . ومنهم من يتيسَّرُ له المراثى ويتعذّرُ عليه الغزلُ . وقيل للعجاج : إنك لا تحسنُ الهجاء فقال : إن لنا أحلامًا تمنعُنا من أن نَظلم ، وأحسابا تمنعنا من أن نُظلم ، وهل رأيت بانيًا لا يُحسنُ أن يهدم ؟

تراجم الشعراء

الخنساء

... ودخلت خنساء على أم المؤمنين عائشة ، وعليها صدار[1] لها من شعر ، فقالت لها عائشة رضى الله عنها : يا خنساء إن هذا لَقبيح ، قبض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فما لبستُ هذا ، قالت : إن له قصة قالت : فأخبرينى ، قالت : زوجنى أبى رجلا ، وكانَ سيدًا مِعْطاءً ، فذهبَ مالهُ ، فقال لى : إلىَ من يـ خنساء ؟ قلتُ : أخى صخر ، فأتيناه ، فقسم ماله شطرين ، فأعطانا خيرهما ، فجعل زوجى أيضًا يُعطى ويحَملُ حتى نفدَ مالُه ، فقال : إلى مَن ؟ فقلت إلى أخى صخر ، (فأتيناه) فقسم ماله شَطرين ، فأعطانا خيرهما ، فقالت امرأته : أما ترضى أن تعطيها النصف حتى تُعطيها أفضلَ النّصفَيْن ؟ فأنشأ يقول :

والله لا أمنحُهـا شِـرارَهـا ولـو هَلكتُ مَـزَّقتْ جِـمَارَهـا
وَجَعَلَتْ من شَعَر صِدَارَها

فذلك الذى دعانى إليه أن لبستُ هذا حين هلك .

---

(١) الصدار : ثوب رأسه كالمقنعة وأسفله يغشى الصدر والمنكبين تلبسه المرأة ، وكانت المرأة الثكلى إذا فقدت حميمها فأجدت عليه لبست صدارًا من الصوف .

وكانت تقف بالموْسم فتسوّم هودَجَها بسُومة[١] ، وتُعاظِمُ العربَ بمصيبتها بأبيها عمرو بن لشريد وأخَويْها صخر ومعاوية ابنى عمرو ، وتُنشدهم فتبْكى الناسَ .

وكان أبوها يأخذ بيدَى ابنيه صخر ومعاوية ، ويقول : أنا أبو خيرَى مُضَر ، فتعترف له العربُ بذلك . ثم قالت الخنساءَ بعد ذلك : كنتُ أبكى لصخر من القتل ، فأنا أبكى له اليوم من النار .

ومِمَّا سبقت إليه قولُها :

أشمُّ أبلجُ تـأتَّم الهـداة بـه كـأنـه علم فى رأســهِ نـارُ

جميل بن معمر العذرى

وهو أحد عشاق العرب المشهورين بذلك ، وصاحبته بُثَيْنَة ، وهما جميعاً من عُذرَة ...

والجمال فى عُذْرَة والعشق كثيرٌ ، قيل لأعرابى من العذريّين : ما بال قلوبكم كأنها قلوب طير تَنماث[٢] كما ينماث الماء فى الملح ؟ أما تَجلّدون[٣] ؟ قال : إنّا لننظر إلى محاجر أعين لا تنظرون إليها !! وقيل لآخر : ممَّن أنت ؟ فقال : من قوم إذا أحبوُّا ماتوا ، فقالت جاريةٌ سمعته : عذرىٌّ وربّ الكعبة !

وعشق جميلٌ بثينة وهو غلام ، فلما كَبِرَ خطبها فَرُدّ عنها ، فقال الشعر فيها وكان يأتيها سرًّ ، ومنزلها وادى القُرى ، فجمع له قومها جمعًا ليأخذوه إذا أتاها ، فحذّرته بثينةُ ، فاستخفى وقال :

ولو أنَّ ألفًا دون بَثْنَةَ كُلُّهُمْ غيارَى وكلٌّ حاربٌ مُزمعٌ قَتلى
لحـاولتُها إمّـا نهارًا مُجـاهِـرًا وإمّا سُرَى ليلٍ ولو قُطِعَتْ رِجْلِى

وقال كُثيرٌ : قال لى جميل : خُذ لى موعدًا من بثينة ! قلت له هل بينك وبينها علامةٌ ؟ فقال لى : آخر عهدى بها وهم بوادى الدوم يَرْحَضُون ثيابهم . فأتيتهم فأجدُ أباها قاعدًا بالفناء ، فسلّمتُ ، وحادثته ساعةً حتى استنشدنى فأنشدته :

فقلتُ لها : يا عَزّ أرسَلَ صاحبى على نأىْ دارٍ ، والمَوَكّل مُرْسَلُ

---

(١) سومة : علامة .

(٢) تنماث : تذوب .

(٣) تجلدون : تتجلدون ، حذفت التاء الأولى للتخفيف أى تصبرون .

بأن تجعَلى بينى وبينك موعدًا وأن تأمرينى بالذى فيه أفعلُ
وآخرُ عهدٍ منك يومَ لَقيتِنِي بأسْفَل وادى الدّوْم والثوْبَ يغْسَل

فضربتْ بُثينة الخِدْرَ وقالت : اَخْسَأ ! فقالَ لها أبوها : مَهْيَم يَ بثينة[1] ؟ قالت : كلبٌ يأتينا إذا نوّم الناسُ من وراء هذه الرّابية . قال : فأتيتُ جميلاً فأخبرته أنّها واعدتهُ وراءَ الرّابية إذا نوّمَ الناسُ ..

---

(١) مهيم : كلمة يمنية يستفهم بها ، معناها : ما أمرك وما شأنك ؟